ملاحظات عن بعض الأطباء اليهود المصريين الذين برزوا أثناء الحكم العربي[١]

صاحب السعادة، السيدات والسادة،

بدايةً، أستميحكم عذرًا فيما قد تجدونه في محاضرتي من نقائص، سواء في الشكل أو المضمون؛ فلا بد أن ننظر بعين الاعتبار إلى أنه لا يوجد -حتى وقتنا هذا- أيُّ نص يجمع تاريخ الأطباء اليهود في الشرق، وأن معظم كُتُبِهم قد فُقِدَت، وما يوجد منها في المكتبات أكثره غير منشور، ويصعب الوصول إليه[٢]. ومن المؤسف أن أهم الكتب الطبية التي وضعها إسحاق الإسرائيلي وابن ميمون لم تُنشر بالعربية، رغم أن هناك ترجمات لاتينية وعبرية لها منذ العصور الوسطى، وذلك على الرغم من أن هناك كتبًا طبية عربية، أقل أهميةً منها بكثير، قد تم نشرها منذ فترة طويلة. وحتى تراجمُ عددٍ كبيرٍ جدًا من مشاهير الأطباء اليهود في العهد العربي نجدها متناثرة في كتابات المؤرخين وكُتّاب التراجم المسلمين. وباستثناء ستاينشنيدر Steinschneider[٣]، فإن الحاخامَيْن كرونر Kroner وموينـز Muenz هما فقط مَن واتَتْهما فكرةُ إبراز تاريخ الأطباء اليهود في الشرق. وأمام هذه المادة الضخمة التي تتطلب دراستُها عُمرًا بأكمله، لا يسعني إلا الاكتفاء بإيراد بعض الخصائص المميِّزة للمعارف الطبية لدى أشهر هؤلاء الأطباء، وإغفال القدر الأكبر المتعلق بأولئك الأقل شهرة.

---

(١) محاضرة ألقيت أمام الجمعية المصرية للدراسات التاريخية اليهودية، في القاهرة، يوم ٣١ مايو ١٩٢٨م. ترجمة: شيرين محمود؛ أخصائي أول بمركز المخطوطات، عن الأصل المنشور باللغة الفرنسية. مُراجعة: محمد عبد السميع؛ أخصائي أول بمركز المخطوطات، للترجمة العربية عن النص الفرنسي الأصلي. تعقيب: ميخالي سولومونيدس؛ أخصائي موجه بمركز المخطوطات. ضبط النص العربي الـمُـترجَـم: د. مدحت عيسى؛ مدير مركز المخطوطات.

(٢) الكتاب الذي وضعه Muenz بالألمانية له ميزاته، ولكنه شديد الاختصار لدرجةٍ لا تسمح باعتباره تاريخًا جامعًا.

وقبل البدء في موضوع حديثنا، فلننظر أولًا إلى حال العلم -وخاصةً الطب- في الفترة السابقة على الإسلام. كان الشرق قد اكتسب صبغةً هيلينية بتأثيرٍ من غزوات الإسكندر الأكبر، وأصبحت الإسكندريةُ المركزَ الفكريَّ لذلك العالَم الجديد، ولم يتغير هذا الوضع فيما بعد تحت السيطرة الرومانية. وكان اليهود أنفسُهم -كما تعلمون- قد اصطبغوا تمامًا بالصبغة الهيلينية في مصر ومعظم الأقاليم الآسيوية التابعة للإمبراطورية السلوقية[٣]. ولم يكن هناك مركز للمقاومة اليهودية أمام الزحف الهلينستي إلا في فلسطين، وعلى الأخص القدس، وقد تجسَّدت هذه المقاومة في الثورات التي قام بها اليهود ضد مضطهديهم، بدايةً من السلوقيين حتى البيزنطيين. ولكن مع ذلك، ظَلَّ التفكير العلمي اليهودي يونانيًا، مثلما كان الحال مع فيلون Philon والمؤرخ فلافيوس يوسيفوس Flavius Joseph. أما ازدهار المسيحية وغزو الفرس لآسيا الوسطى، فلم يكن لهما تأثير واضح في العلوم. ولم يظهر التأثيران الهندي والفارسي إلا في الكيمياء والجغرافيا، وبدرجةٍ محدودة. وظلت الفلسفة تسير على خطى أفلاطون Platon وأرسطو Aristote، وتابع الطب نهج أبقراط Hippocrate وجالينوس Galien، بينما اتبعت الرياضيات مذهب أقليدس Euclide وبطليموس Ptolémée. وكانت اليونانية لا تزال هي اللغة السائدة في الإسكندرية، بينما بدأت اللغة الآرامية المحدَثة أو السريانية تصبح لغةَ العلم في سوريا وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين. وبالتدريج بدأ بعض الأطباء، خاصةً ممن ينتمون لطائفة النساطرة المسيحية، يترجمون أعمال كبار الأطباء اليونانيين إلى السريانية. وفي القرن الخامس قبل الميلاد، أضيفت مدرسةٌ للطب إلى أكاديمية جنديسبور Gondé-Châpour (في خوزستان Khouzistan) بفارس، وهي الأكاديمية التي أنشأها الملوك الساسانيون قبل ذلك بقرن. وهناك التقت مذاهب اليونانيين -التي تمت ترجمتُها إلى السريانية والبهلوية (اللغة الفارسية الوسطى)- بمذاهب الأطباء الهنود التي جُلِبَتْ من خلال بعثات خاصة وتُرجِمَت من السنسكريتية إلى الفارسية. ونشير هنا إلى أن لعبة الشطرنج

(٣) السلوقيون (٣١٢-٦٤ ق.م.) هم سلالة هلينستية ترجع تسميتها إلى مؤسس الأسرة الحاكمة للدولة السلوقية، سلوقس الأول نيكاتور (الفاتح) أحد قادة جيش الإسكندر، شكلت هذه الدولة إحدى دول القادة الخلفاء (Diadochi) التي نشأت بعد موت الإسكندر المقدوني، وخلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد حكمت منطقة غرب آسيا، وامتدت من تراقيا غربًا وحتى الهند شرقًا. كان للسلوقيين الدور الكبير في تفاعل الحضارتين الإغريقية والشرقية. (المترجمة)

انتقلت بهذه الطريقة، في القرن السادس الميلادي، من الهند إلى بلاط كسرى أنوشروان Khosrau Anoûchirvân على يد طبيبه الخاص برزويه Borzawaïh الذي ربما كان يهوديًّا.

وطيلة تلك الفترة، لا يذكر التاريخ شيئًا عن الأطباء اليهود، رغم أنهم كانوا بلا شكٍّ موجودين، بل ولهم مكانتهم، كما يظهر من كلام الأب يوحنا فم الذهب Jean Chrysostome بطريرك القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي، الذي كان يقول إنه من الأفضل للإنسان أن يموت ولا أن يعالجه طبيب عبراني! وكانت المدارس اليهودية الثلاث بفارس، في صورا Soura وبومبديثا Poumbeditha ونهارديا Nehardea، تهتم فقط بالشروح التوراتية والتراث، مهملةً الطب. ولكن التلمود نفسه، الذي ترجع أصوله إلى الفترة بين القرنَيْن الثاني والسادس الميلاديين، يحوي العديد من الإشارات الطبية ويذكر بعضَ الأطباء، خاصةً البابليّ مار صمويل (١٦٥-٢٥٧ ق.م.) الذي تَرِدُ كثيرٌ من أقواله في النص(٤).

بعد ظهور النبي محمد، وغزو البلاد الإفريقية والآسيوية التي كانت تحت حكم البيزنطيين والفرس، نسمع عن طبيب اسمه ثيودوكوس Théodocus كان يعمل لدى الوزير القوي puissant vizir الحجاج بن يوسف (ت ٧١٤م)، ونشرَ المعارفَ الطبية اليونانية في الدولة الأموية. وكان لهذا الطبيب تلميذٌ يهودي اسمه فرات ابن شاحناثا Forât Ben Chahnâthâ عمل طبيبًا لعيسى بن موسى حاكم الكوفة بعد نشأة الدولة العباسية (بدايةً من ٧٥٠م)(٥).

ونقلتْ إلينا كتبُ التراجم العربية أيضًا اسمَيْ طبيبين يهوديين عاشا في البصرة في القرن الثامن الميلادي هما ماسرجيس Mâsardjïs أو مسرجويه Mâsardjawaïh وابنه عيسى. وقد اشتهر مسرجويه على الأخَصّ لترجمته إلى العربية كتابًا يونانيًّا مهمًّا في الطب هو «الكُنّاش في الطب» Pandects لأهرن السكندري Aharôn d'Alexandrie (النصف الأول من القرن السابع

(٤) انظر:

I. Preuss, Biblisch-talmudische Medizin, Berlin, 1911; M. Neuburger, Geschichte der Medizin. Stuttgart, 1911. Vol. II, pp. 8-88; George Sarton, Introduction to the History of Science, vol. I, Baltimore 1927.(الجزء الثاني يعرض، من بين ما يعرض، للعلم العبراني من القرن الثاني عشر حتى القرن الخامس عشر).

(٥) ابن القفطي، كتاب الحكماء، طبعة ليبزج، ١٩٠٣.

Kitâb al-Hukamâ, ed. I. Lippert, Leipzig, 1903; L. Leclerc, Histoire de la médecine arabe, Paris, 1876, vol. I, p.82.

الميلادي)، وهو كتاب كان قد ترجمه من اليونانية إلى السريانية شخص يُدعى جِسيوس Gessius. كل هذا يعطينا فكرة عن خليط الأجناس واللغات الذي كان شائعًا في بدايات الإسلام: فالراهب المسيحي أهرن، الذي يحمل اسمًا ساميًا، كتب باللغة اليونانية، ثم قام اليوناني جسيوس بالترجمة إلى السريانية، ثم ترجم اليهوديُّ الفارسيُّ ماسرجيس الكتابَ إلى العربية! بالإضافة إلى ذلك، قام ماسرجيس بتأليف كتب في الطب، إلا أنها فُقدت جميعًا، وكذلك فُقدت ترجمته للكُنّاش. لكن الرزاي، الطبيب العربي الفارسي الشهير، يذكره كثيرًا باسم (اليهودي)[٦]، خاصةً عندما يتحدث عن كتابه عن منافع العقاقير (كتاب العقاقير ومنافعها ومَضارّها).

إننا لا نعرف الكثير عن تطور العلوم في عهد الخلفاء الأمويين (٦٦١-٧٥٠م). أما الخلفاء العباسيون (منذ ٧٥٠م)، فقد بدأوا -كما قلنا- في شراء وترجمة كل المخطوطات اليونانية في الطب والفلسفة والعلوم الطبيعية، من كل أرجاء مُلكهم الشاسع، بل وحتى في الأقاليم المجاورة الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية. وفي عام ٨٣٠م، أنشأ المأمون في بغداد أكاديمية ومكتبة أسماها "بيت الحكمة"، وأنفق فيها على عددٍ كبير من المترجمين، كان معظمهم أطباء، وكلهم تقريبًا من النساطرة الذين يعرفون اللغات اليونانية والسريانية والعربية. وهكذا تُرجم في عهد المأمون وخلفائه العشرة، حتى نهاية القرن التاسع الميلادي؛ أغلبُ مؤلفات أبقراط، وجالينوس، وروفوس Rufus وديسقوريديس Dioscoride، وأوريباسيوس Oribase وبولس الإيجي[٧] Paul d'Égine وغيرهم، بالإضافة إلى مؤلَّفات الفلاسفة اليونان وشروحهم، ومؤلفات الرياضيين والفلكيين والجغرافيين والكيميائيين والعشّابين. وكان هذا مصدرَ الازدهار المذهل للطب العربي، ذلك الازدهار الذي أسهم الأطباء اليهود في تحقيقه إسهامًا كبيرًا. فإذا نظرنا إلى كلام ابن أبي أصيبعة، المؤرخ الشهير للأطباء العرب[٨]، سنجد أن القرن التاسع الميلادي شهد نحو مائة وثلاثين طبيبًا مسيحيًا، وثلاثةَ وثنيّين (صابئة، أي عَبَدَة النجوم)، وثلاثة يهود وخمسة مسلمين. وفي القرن العاشر الميلادي، كان هناك تسعة وعشرون طبيبًا مسيحيًا، وأربعة وثنيين، وستة من اليهود، وثلاثون مسلمًا. وفي

(٦) Leclerc, l.c., pp. 77-81.

(٧) المعروف أيضًا باسم: «بولس الإيجيني» و«بولس الإيجينيتي». (المـُعـَـقَّب)

(٨) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، القاهرة ١٨٨٢م، جزآن (باللغة العربية).
M. Steinschneider, Zeitschr. d. Deutschen Morgenlaend, Gesellsch., 53, 428-34, 1899.

القرن الحادي عشر الميلادي، أربعة أطباء مسيحيين فقط، وسبعة يهود، وعدد كبير من المسلمين. وتُحَدِّثنا الحوليات العربية عن اثنين من الأطباء المشهورين، عاشا في القرن التاسع الميلادي، هما سهل بن بشر، المعروف باسم رَبّان الطبري، وابنه عليّ الذي اشتهر بفضل موسوعته «فردوس الحكمة» التي ألَّفها نحو عام ٨٥٠م[٩]، وقد زُعِم أنهما من اليهود الفرس، لكنهما كانا من النساطرة واعتنقا الديانة الإسلامية، ويتضح هذا من كتابٍ اكتُشف مؤخرًا ونشرته مكتبة مانشستر[١٠]، وهو مقالة في مدح الديانة الإسلامية كتبها علي الطبري. لذلك، يجب من الآن أن نتوقف عن عدِّهما طبيبين يهوديين عربيين.

أما المصادر العبرانية، فقد نقلت لنا اسمي طبيبين يهوديين عاشا في بغداد نحو عام ٨٠٠م؛ أحدهما هو إسحق بن عمران الكبير، والآخر هو يوشع بن نون، وهذا الأخير كان أستاذًا للطبيب الكبير والفيلسوف والفلكي المسلم أبي يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي[١١]، ولكن هناك مصادر تذكره على أنه مسيحي.

ننتقل الآن إلى أشهر الأطباء اليهود بعد ابن ميمون، وهو إسحق بن سليمان الإسرائيلي، الذي يذكر العرب اسمه هكذا: أبو يعقوب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي. وقد وُلد في القرن التاسع الميلادي، ومات عن عمرٍ يناهز المائة سنة (وذلك فى نحو عام ٩٣٢م). ويقول سيلفستر دي ساسي[١٢] في ترجمته: «كان إسحاق بن سليمان الإسرائيلي طبيبًا ماهرًا وموهوبًا وعلى درجة كبيرة من العلم، وقد اشتُهر بعبقريته ومعارفه، وألَّف كتبًا ممتازة، وتميَّز بنُبل مشاعره... وهو معروف

(٩) ابن أبي أصيبعة، المرجع السابق، ج١: ٣٠٨-٣٠٩؛ ابن القفطي، المرجع السابق: ٢٣١؛ ابن النديم، كتاب الفهرست، طبعة Fluegel؛ ليبزج ١٨٧١، ج١: ٢٩٦.

Steinschneider, Zeitschrift d. Dtsch. Morgenl. Gesellsch., 54, 46-48, 1900; H. Suter, Die Mathematiker und Astronomen der Araber, Leipzig 1900, pp.14-15; E.G. Browne, Arabian Medicine, Oxford 1921, pp.37-44.

(١٠) علي الطبري، كتاب الدين والدولة:

The Book of Religion and Empire, ed. A. Mingana, Manchester 1923

النص بالعربية، أما الترجمة الإنجليزية التي صدرت في ١٩٢٢م فليست في حوزتي.

(١١) The Jewish Encyclopedia, vol. VIII, 1906, p.414.

(١٢) Sylvestre de Sacy, Relation de l’Egypte par ‘Abd-Allatif, médecin arabe de Bagdad, Paris 1810, pp. 41-45.

باسم الإسرائيلي. وقد وُلد في مصر. وبدأ بممارسة الكحالة، ثم استقر في القيروان ولازم إسحاق بن عمران (الصغير، وكان طبيبًا مسلمًا بارزًا) وتتلمذ له. ثم صار طبيبًا للإمام أبي محمد عبيد الله[١٣] المهدي حاكم إفريقية (هو زيادة الله الثالث، من الأغالبة، ٩٠٣-٩٠٩م)... ولم يتزوج أبدًا ولا ترك أطفالًا. وقد سأله أحدهم يومًا إن لم يكن من الأفضل أن يكون له أولاد، فأجابه: «أبدًا، فأنا... أترك أربعة كتب تحيي ذكري أكثر من الولد، وهي كتاب الحميات، وكتاب الأغذية والأدوية، وكتاب البول، وكتاب الأسطقسات[١٤]». وقد ترك لنا ابن الجزار، أشهر تلاميذ إسحق، الرواية التالية التي نقلها من فم أستاذه مباشرة: «لَمّا تركت مصر للعمل بجوار الأمير زيادة الله بن الأغلب، وجدته معسكرًا مع جنوده في الأُربُس (غرب القيروان)، فلقيته هناك. وكان هو الذي طلبني للحضور وأرسل لي خمسمائة دينار (ذهبًا) لتكاليف الرحلة. وما إن علم بمجيئي حتى استقبلني لديه، وألقيت عليه التحية الواجبة للأمراء. ولكني لاحظت قلّة المهابة في بلاطه، وأنه كان يفضّل المزاح والهزل». بعدها نصب له أحد رجال البلاط فخًّا طارحًا عليه سؤالًا: الشيء المملح لذيذ الطعم، والشيء الحلو لذيذ الطعم، إذن الحلو ملح والملح حلو! وخرج إسحق من الموقف بشرح علمي، وبدوره ألقى على محدثه السؤال التالي: «ألست حيًّا؟ قال: بلا شك. قال إسحق: وهذا الكلب، هل هو حي؟ قال: نعم. فقال له: إذن، فأنت الكلب، والكلب أنت»، فقهقه زيادة الله ضاحكًا، وعرف إسحاق أنه يفضل المزاح على الجد[١٥].

(١٣) في الأصل: عبد الله. (المترجمة)

(١٤) النص الأصلي كما جاء في كتاب عيون الأنباء هو: «ولم يتخذ امرأة ولا أعقب ولدًا، وقيل له: أيَسُرك أن لك ولدًا؟ قال: أما إذا صار لي كتاب الحميات، فلا. يعني أن بقاء ذكره بكتاب الحميات أكثر من بقاء ذكره بالولد. ويروى أنه قال: لي أربعة كتب تحيي ذكري أكثر من الولد وهي: كتاب الحميات، وكتاب الأغذية والأدوية، وكتاب البول، وكتاب الأسطقسات»، ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت: ٤٨٠. (المترجمة)

(١٥) النص الأصلي كما جاء في كتاب عيون الأنباء هو: «وقال أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد المعروف بابن الجزار في كتاب «أخبار الدولة» [...]: حدثني إسحق بن سليمان المتطبب قال: لما قدمت من مصر على زيادة الله بن الأغلب وجدته مقيمًا بالجيوش في الأريس فرحلت إليه، فلما بلغه قدومي وقد كان بعث في طلبي وأرسل إليَّ بخمسمائة دينار وتقويت بها على السفر، فأُدخلت إليه ساعة وصولي فسلمت بالإمرة، وفعلت ما يجب أن يُفعَل للملوك من التعبُّد، فرأيت مجلسه قليل الوقار والغالب عليه حب اللهو، وكل ما حرك الضحك. فابتدأني بالكلام ابن خنيس المعروف باليوناني فقال لي: تقول إن الملوحة تجلو؟ قلت: نعم. قال: وتقول إن الحلاوة تجلو؟ قلت: نعم؟ قال لي: فالحلاوة هي الملوحة، والملوحة هي الحلاوة. فقلت: إن الحلاوة تجلو بلطف وملاءمة، والملوحة تجلو بعنف. فتمادى على المكابرة وأحبَّ المغالطة. فلما رأيت ذلك قلت له: تقول أنت حي؟ قال: نعم. قلت: والكلب حي؟ قال: نعم. قلت: فأنت الكلب والكلب أنت. فضحك زيادة الله ضحكًا شديدًا، فعلمت أن رغبته في الهزل أكثر من رغبته في الجد»، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء: ٤٨٠. (المترجمة)

وفي ٩٠٩م، هُزم زيادة الله وخُلع عن العرش على يد المهدي الفاطمي، الذي فتحت أسرتُه مصرَ فيما بعد. وعمل إسحاق بن سليمان لديه ولدَى خلفائه من بعده. وإذا كانت هذه الرواية التي أوردها عدة مؤرخين حقيقية، فسيعني هذا أنه لم يمت في عام ٩٣٢م بل بعد ذلك بعشرين سنة على الأقل؛ لأن هذا معناه أنه عالج الخليفة الفاطمي الثالث على تونس، المهدي، حتى وفاته في عام ٩٥٢م. وهذا يتفق مع ما ذكره ابن أبي أصيبعة عما تمتع به إسحاق من طول عُمْرٍ مذهل(١٦).

وقد نسب هذا المؤلف نفسُه لإسحاق الكتبَ الطبية الأربعة التي ذكرناها آنفًا، بالإضافة إلى «مقدمة في الطب»، و«مقالة في النبض»، ومقالة «في الترياق» وعدة مؤلفات فلسفية. وهناك مقالة «في الاستسقاء» لا تذكرها الحوليات، ولكن لها ترجمة عبرية موجودة في باريس. وقد صنّف إسحاق أعمالَه الطبيةَ بالعربيةِ، لأنها كانت مُهداة إلى حكّام تونس. وحظيت مقالتا «الحمى» و«البول» على تقدير خاص، ووُصفتا بأنهما أفضل ما كُتب في هذين المجالين، كما أنهما تعكسان الطب اليوناني الذي انتقل عبر الترجمات العربية في القرن التاسع الميلادي. ويوجد ثلاث من مقالات إسحاق بالعربية.

وفي القرن الحادي عشر، تُرجمت كل أعمال إسحاق إلى اللاتينية على يد قسطنطين الإفريقي Constantin l’Africain، الذي كان مسلمًا من قرطاج ثم تنصَّر وصار راهبًا بدير مونت كاسينو Monte Cassino في إيطاليا. وقد طُبعت في ليون عام ١٥١٥م بعنوان (Opera Omnia Isaaci Filii Salominis)، وكان لها تأثير عظيم في الطب في تلك الفترة. وفي القرن الحادي عشر، قال عليُّ بن رضوان، الطبيب المصري المسلم، عن كتاب «مقالة في الحميات»: «أشهد أن هذا الكتاب عظيم الفائدة، وأنه عملُ رجلٍ عظيم الفضل. وقد مارستُ معظمَ ما ذكره هذا الكتاب ولم أجد ما أضيف عليه»(١٧). ويضيف ابن أبي أصيبعة: «وهذا الكتاب يفوق كَل ما كُتب في هذا الموضوع»(١٨). وقد قام جيرار دي كريمونا Gérard de Crémone (ت ١١٨٧م) بترجمة بعض كتب إسحاق الأخرى إلى اللاتينية، وجيرار هو أبرز المترجمين من العربية إلى اللاتينية في العصور الوسطى.

(١٦) «وعمّر عمرًا طويلًا إلى أن نيَّف على مائة سنة»، ابن أبي أصيبعة: ٤٧٩. (المترجمة)

(١٧) النص في كتاب ابن أبي أصيبعة: «أقول أنا عَلي بن رضوان الطبيب إن هذا الكتاب نافع وجمع رجل فاضل، وقد عملت بكثير مما فيه فوجدته لا مزيد عليه»: ٤٨٠. (المترجمة)

(١٨) النص في كتاب ابن أبي أصيبعة: «ولم يوجد في هذا المعنى كتاب أجود منه»: ٤٨٠. (المترجمة)

وفيما بعد، تُرجمت كل أعمال إسحق -بما في ذلك مقالاته الفلسفية- إلى العبرية، بعضها من الأصل العربي والبعض الآخر من اللاتينية. وبالإضافة إلى ذلك، هناك العديد من الرسائل بالعبرية فقط، حيث ضاعت أصولها العربية، منها «مقالة في الروح والنَّفْس» وتعليق على كتاب يصيره Yesîra «كتاب الخلق».

وفي عام ١٨٦١م، اكتشف موسى سواف Moïse Soave مقالةً صغيرة بالعبرية منسوبة لإسحاق الإسرائيلي[١٩] تحمل عنوان «إرشاد الأطباء»[٢٠]، وهي مجموعة من خمسين حكمة بعضها مكتوب بأسلوب ممتاز. ونذكر من الحِكم التي أوردها إسحق: «الوقاية خير من العلاج»، «معظم المرضى يبرأون بمساعدة الطبيعة»، «إن كانت لديك الخيرة بين العلاج بالأغذية أو بالأدوية، فاختر الأولى»، «أغلق فمك على التوقعات القاطعة، واكتفِ بالافتراضات»، «لا تُجْرِ لسانك بإدانة غيرك من الأطباء، فلكلٍّ كبوة. واحرص على أن تكون الإشادة بك لنجاحك، ولا تبحث عن سعادتك في القدح في الآخرين»، «احرص على علاج ومداواة المرضى الفقراء، فلن تجد عملًا أشرف من هذا»، «طمئن المريض حتى ولو كان هذا يخالف قناعتك، فأنت بهذا تساعد الطبيعة على القيام بعملها».

ومن بين القواعد العملية للأطباء، أذكر هذه الحكمة: «اطلب أجرك من المريض بينما المرض في أشده، لأنه ما إن يُشفى فسرعان ما سينسى ما قدمته له من خدمات!».

ولم تحظَ أعمال إسحاق الفلسفية، كتاب التعريفات وكتاب العناصر، بأي تقدير. ويقول ابن ميمون نفسه، في رسالةٍ كتبها إلى صمويل بن طيبون: إن إسحاق لم يكن إلا طبيبًا كبيرًا، ولكنه لم يكن فيلسوفًا ذا قدر.

وقد قلنا في السابق إن أشهر تلاميذ إسحاق بن سليمان كان الطبيب المسلم ابن الجزّار. ومن تلاميذ إسحاق أيضًا، هناك أبو سهل دوناش بن تميم، وهو يهودي اشتُهر أيضًا باسم أدونيم Adônîm، وقد خَلَفَ إسحاق في وظيفته كطبيب في بلاط الخلفاء الفاطميين في القيروان،

(١٩) قد تكون هذه المقالة من وضع إسحاق إسرائيلي آخر، يهودي إسباني من القرن الحادي عشر أو الثاني عشر، كتبه باليهودية.

(٢٠) Soave; Guida dei medici, Giorn. di Scienze Mediche, vol. 18, 1861; D. Kauffmann, Isaak Israeli's Propaedeutik fuer Aerzte, Magaz. f. Wiss. d. Judentums, II, 97-112, 1885.

وصنَّف هناك عدة مؤلفات في الفلسفة والرياضيات والطب، وكان يراسل زميله اليهودي المشهور حسداي بن شابرو Hasdaï ben Chaproû (ت ٩٧٠م) الذي كان وزيرًا وطبيبًا في بلاط حاكم قرطبة بالأندلس. ولست هنا بصدد الكلام عن الأطباء اليهود في إسبانيا، ولكني فقط أذكِّركم أن حسداي كان له فضل علمي كبير عندما ترجم كتاب الأدوية لديوسقوريدس Dioscoride من اليونانية إلى العربية، بمساعدة الراهب نيقولا في نحو عام ٩٥١م، وكان الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع قد أهدى هذا الكتاب للخليفة القرطبي عبد الرحمن الثالث.

وفي سياق حديثنا عن ترجمات اليهود للكتب الطبية، لا يمكن أن نغفل ترجمات أضخم الموسوعات الطبية في العصور الوسطى: كتاب الحاوي للرازي، والقانون في الطب لابن سينا، الطبيبين المسلمين الفارسيين الماهرين (اللذين عاشا في القرنين العاشر والحادي عاشر الميلاديين). فكتاب الحاوي يقع في خمسة وعشرين مجلدًا مخطوطًا على الأقل. ولا توجد منه نسخة خطية عربية واحدة كاملة، وأقل النسخ عيوبًا هي النسخة الموجودة بمكتبة الإسكوريال (بالقرب من مدريد)، ويعود الفضل فيها إلى عمل الأطباء اليهود، حيث تحمل في حواشيها العديد من الملاحظات بالعبرية. وطيلة أربعة قرون، لم يجرؤ أحد أن يترجم هذا الكتاب الضخم، حتى جاء اليهودي فرج بن سالم (سولمون) المعروف باسم فرجوت Farraguth، وهو من جرجنتي Girgenti في صقلية، وتصدَّى لهذه المهمة التي تفوق قدرة البشر، على نفقة شارل دانجو Charles d'Anjou شقيق شارل التاسع ملك نابولي. وقد فرغ من ترجمته اللاتينية سنة ١٢٧٩م، وطُبعت بعدها بقرنين في برشيا Brescia في عام ١٤٨٦م، وقد احتلت الترجمة مجلدين ضخمين من القَطْع الكبير in-folio. ويقول عنها لوكليرك Leclerc إنها أهم ترجمة لدراسة تاريخ الطب، لأن الحاوي يعرض لكل الكتب الطبية اليونانية والسريانية المعروفة للعرب، ويضيف إليها مقتطفات من أوائل الكتب الطبية العربية حتى عام ٩٠٠م تقريبًا. وبالإضافة إلى هذه الترجمة، ترجم فرجوت للاتينية أيضًا كتابين مهمين للطبيبين العربيين المسيحيين ابن جزلة وابن بطلان (القرن الحادي عشر الميلادي).

أما الموسوعة الطبية العربية الأخرى، الأقل حجمًا والأكثر شهرة، وهي القانون لابن سينا، فقد ترجمها للاتينية المسيحيُّ جيرار دي كريمونا، بينما ترجمها من العربية إلى العبرية ناثان هامياتي Nathan Ha-Meâtî في روما عام ١٢٧٩م، وكذلك ترجمها في نفس الوقت زراحيا بن إسحاق بن

سحيلتيال هاين Zerahya ben Isaac ben Chealtiel Hein، وإن كانت ترجمته غير مكتملة. أما ترجمة ناثان، فقد صحَّحها وضبطها فيما بعد يوسف بن يوشع لوركي Joseph ben Josué Lorkî. وقد صدرت الطبعة الأولى من الترجمة العبرية للقانون في ثلاثة أجزاء في نابولي حوالي عام ١٤٩١م، أي قبل صدور طبعته العربية الأولى بنحو قرن (روما، ١٥٩٣م).

وننتقل الآن إلى طبيب عُرف باسم عسَّاف اليهودي (Asaph Ha-Yehoûdî Asaf Iudaeus)، ولا نعرف شيئًا عن حياته غير أنه عاش في القرن التاسع أو القرن العاشر للميلاد، ويُعد كتابه الطبي Sêfer Rephodôth (كتاب الشفاء) أقدم كتاب معروف باللغة العبرية في هذا المجال[٢١]، وقد يكون مترجَمًا عن اليونانية أو السريانية؛ لأنه لا يذكر إلا كتبًا طبية يونانية. وهو يتكلم في التشريح، ووظائف الأعضاء، وعلم الأمراض، والصحة، والمداواة، وينتهي ببعض الحِكَم وقَسَم أبقراط الشهير. وكثيرٌ من العلاجات المذكورة لم تكن معروفة في الطب اليوناني.

لا شك أنكم لاحظتم أن القرن العاشر شهد العديد من الأطباء اليهود المشهورين، بالإضافة إلى مَن اشتهروا بمعارفهم الفلسفية أو الفيلولوجية أكثر من معارفهم الطبية، مثل يونا Yônâ (ابن جناح) النحوي والطبيب اليهودي الإسباني السرقسطي.

وخلال القرون التالية، من الحادي عشر حتى الرابع عشر، زاد عدد الأطباء اليهود المتحدثين بالعربية، كما زادت شهرتهم. ورأينا منهم أطباء في بلاطات العديد من الحكام المسلمين، في إشبيلية، وغرناطة، وفاس، والقاهرة، ودمشق، وحلب، وبغداد، بل وحتى لدى سلاطين المغول في آسيا الوسطى، مثل سعد الدولة وزير وطبيب السلطان المغولي أرغون، الذي مات تقريبًا في نفس وقت وفاة سيدِه، في عام ١٢٩١م[٢٢].

وسأذكر عددًا من هؤلاء، خاصةً أولئك الذين عاشوا في مصر:

(٢١) Moritz Steinschneider, Die hebraeischen Uebersetzungen des Mittelalters etc. Berlin 1893, pp.388-402 et 754-761.

(٢٢) Rich. Gottheil, The Jewish Encyclopedia, vol. II 1902, p.162. Ludwig Venetianer, Asaf Iudaeus, 3 fasc. Budapest 1915-7.

وهناك اليهودي القرائي أبو البيان السديد ابن المـــُدَوَّر، الذي كان طبيبًا في بلاط آخر الخلفاء الفاطميين (حتى عام ١١٧١م) وفي بلاط خليفتهم صلاح الدين. وقد مات في القاهرة في سنٍّ طاعنة عام ١١٨٣م. وكتابه الأساس هو الدستور المارستاني، وهو أقرباذين خاص بالمستشفيات. ونذكر أيضًا معاصره أبا الفضائل بن الناقد، طبيب العيون اليهودي الذي عاش بالقاهرة، ومات في ١١٨٨م، وقد اشتهر بعطفه على المرضى الفقراء[٢٣]. وكان ابنه، أبو الفرج، طبيب عيون أيضًا، وقد اعتنق الإسلام. ويذكر ابن أبي أصيبعة سلسلة من الأطباء اليهود المصريين المشهورين، مثل هبة الله، المتوفى في ١١٨٤م، وآخر اسمه موفِّق بن شوعة، كان جرَّاحًا وطبيب عيون (ت ١١٨٣م) وأيضًا أبو البركات بن القضاعي (ت ١٢٠٢م) الذي عمل جراحًا وطبيب عيون لدى السلطان العزيز، ابنِ صلاح الدين وخليفتِه. وهناك أبو المعالي بن تمام، الذي كان معاصرًا لابن ميمون، وكان طبيبًا يهوديًّا عمل في بلاط صلاح الدين ثم لدى أخيه سيف الدين[٢٤]، وهناك أسعد المحليّ، الذي وُلد في المحلة الكبرى (في دلتا مصر) وكان أيضًا طبيبًا مشهورًا، وبعده داود بن سليمان (١١٦١ - ١٢٥١م) الذي كان طبيبًا في البيمارستان الناصري بالقاهرة.

ويبدو أن وضع الأطباء اليهود كان ممتازًا، وذلك في بعض الفترات ومع بعض الحكّام المتسامحين، مثل صلاح الدين نفسه وبعض خلفائه. ولكن بصفةٍ عامة عانى الأطباء اليهود، مثل بقية بني دينهم، من كراهية المسلمين والمسيحيين، خاصةً أثناء الحروب الصليبية؛ والدليل على ذلك تحوُّل كثير من الأطباء اليهود المشهورين إلى الإسلام. ولن أذكر من هؤلاء إلا السموأل بن يهوذا Samuel ben Yahoûda، الذي يرجع أصله إلى فاس (المغرب، القرن الثاني عشر الميلادي)، واضطره الاضطهادُ الديني إلى الهجرة مع أبيه، حيث استقرّا بعد طول سفر في بغداد أولًا، ثم بعد ذلك في المراغة (أذربيجان، شمال فارس) وهناك تحوَّل إلى الإسلام، في نحو عام ١١٦٣م، للهروب من اضطهاد الزمرة العدائية التي كانت تملأ بلاط أتابكة أذربيجان، الذي كان طبيبهم المفضَّل[٢٥]. أما أشهر الأطباء اليهود الذين تحوَّلوا عن الديانة اليهودية، فهو هبة الله بن علي بن مَلَكا الذي يحمل لقبي «أبي البركات» و«أوحد الزمان» اللذين يشهدان على ما كان يتمتع به من شهرة ومكانة[٢٦]. وتعد

(٢٣) Ibid., p.116.
(٢٤) Ibid., p.117.
(٢٥) Leclerc, vol. II, p.12-19.
(٢٦) Ibid, p.29-31.

قصته نموذجًا لما كان يحدث في عصره، أي القرن الثاني عشر للميلاد. فقد وُلد هبة الله في بلاد الرافدين، وجاء بغداد لتعلُّم الطب. وكان أشهر أساتذة تلك المدينة، وهو سعيد بن هبة الله، يكره اليهود ولا يقبلهم في مجلسه، فقام الشاب برشوة حارس المدرسة كي يسمح له بدخول الممر المجاور لقاعة الدرس، وهناك استطاع أن يتابع دروس الأستاذ سِرًّا لمدة عام. وبعد ذلك، استطاع الطالب الشاب أن ينال رضا أستاذه بفضل إجابة ذكية، ومن ساعتِها سمح له سعيد أن يحضر دروسه مثل الآخرين. وقد اشتهر كطبيب، وصار طبيبًا في بلاط الخليفة المستنجد (١١٦٠ - ١١٧٠م) في بغداد. ولكن هجمات رجال البلاط المستمرة ضده وإظهارهم مظاهر الاحتقار له كانت تجرحه بشدة، مثل البيتين اللذين يقولان ما معناه: «لدينا طبيب يهودي يتباهى بشدة، وما هو إلا كلب جاءنا من الصحراء»[٢٧]. لذلك تحوّل إلى الإسلام، بعد أن حصل من الخليفة على مرسوم لصالح بناته اللاتي رفضن الاقتداء بأبيهن[٢٨]. ولكن تغيير ديانته لم يحقق له الخير الذي كان يرجوه، فقَدْ فَقَدَ وظيفته بسبب مكيدةٍ ضد زميله المسيحي، أمين الدولة ابن التلميذ، وقد فشلت تلك المكيدة. وبعد ذلك بفترة، أصيب أبو البركات بالجزام والصَّمم والعمى، ومات عن أربعة وثمانين عامًا. وقد كتب بنفسه نصَّ شاهد قبره: «أبو البركات أوحد الزمان، الذي عرف حُسن الطالع وسُوءَه، والذي كتب المعتبَر»[٢٩]. وكان «المعتبر» كتابه الأشهر، وهو رسالة في الفلسفة والفيزياء.

(٢٧) نص البيتين هو:

لنـا طبيبٌ يهـوديٌّ حماقتُه ... إذا تكلَّم تبدو فيـه من فِيـهِ

يَتيهُ والكلبُ أعلى منه منـزلةً ... كأنه بعـدُ لم يخرجْ من التيهِ

وقائلهما هو ابن أفلح (أبو القاسم، علي بن أفلح بن محمد العبسي)، انظر عنه: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م، الجزء الثاني: ٤٠٧. والمصدر: القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ: ٢٥٥. (المترجمة)

(٢٨) «وتحقق أن له بناتًا كبارًا، وأنهن لا يدخلن معه في الإسلام، وأنه متى مات لا يرثنه، فتضَّرع إلى خليفة وقته في الإنعام عليهن بما لا يخلِّفه وإن كنّ على دينهن، فوقع له بذلك. ولما تحقَّقه، أظهر إسلامه». القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٢٥. (المترجمة)

(٢٩) «ولما أحسّ بالموت أوصى إلى مَن يتولاه أن يكتب على قبره ما مثاله: هذا قبر أوحد الزمان أبي البركات ذي العبر صاحب المعتبر». القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٢٦. (المترجمة)

وكثيرٌ من هؤلاء الأطباء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام استسلموا لضغوطٍ لتأليف كتب تهجو الدين الذي تركوه. ومن أشهر تلك الكتب «إفهام طائفة اليهود»[٣٠](*) الذي ألَّفه السموأل بن يحيى نفسه، وتوجد منه نسخة خطية قديمة في دار الكتب بالقاهرة.

إن قائمة الأطباء اليهود في الشرق في القرن الثاني عشر طويلة جدًا، لذا سندع جانبًا الأطباءَ اليهود الذين عاشوا في بلاد شرقية أخرى وفي فترات أخرى، ونتوقف بشيء من التفصيل أمام قصة اثنين من أشهر أطباء مصر في العصور الوسطى، وهما: ابن ميمون وكوهين العطار. وسأكتفي بالكلام في أعمالهما الطبية؛ لأن الأعمال الفلسفية لابن ميمون، ذلك المفكر الكبير، هي مِلكٌ للعالم كله.

وُلد موسى بن ميمون[٣١] في قرطبة بإسبانيا سنة ١١٣٥م، واضطر لمغادرة مسقط رأسه في ١١٤٩م بعد عام من فتح الموحِّدين لها، وهم مسلمون متعصبون قدموا من المغرب. وقد طاف مع أسرته إسبانيا والمغرب وسوريا وفلسطين، لعدة سنوات، ثم استقر أخيرًا في مصر، في الفسطاط (القاهرة القديمة)، في نحو عام ١١٦٧م. ومن المحتمل أن يكون ابن ميمون قد درس الطب (في نفس وقت دراسته للفلسفة واللاهوت اليهودي) في إسبانيا، ثم بعد ذلك في فاس (بالمغرب) التي استقرت بها أسرته بين عامي ١١٥٨ و١١٦٥م، ولكننا لا نعلم أساتذته. ولا شك أنه لم يكن ليمارس الطب لولا وفاة أخيه داود المبكِّرة التي اضطرته للعمل كي يعول أسرته الكبيرة وحدَه. وهكذا اضطر أن يكون ناجيد Nâguid (أي رئيس) طائفة اليهود في القاهرة، وفي الوقت نفسه طبيبَ السلاطين الأيوبيين ورجال بلاطهم. ويحكي ابن ميمون نفسه، في رسالة كتبها لتلميذه يوسف بن يهودا[٣٢]، كيف كان يخرج من بيته في الفسطاط مع الشروق راكبًا حصانه حتى القاهرة، حيث ينتظر بالقصر ويعالج مرضاه من النبلاء. وهو يأسف لعدم علاجه للمرضى الفقراء، لِضِيق الوقت.

(٣٠) يترجم المؤلف عنوان الكتاب هكذا: Pour faire taire la secte des Juifs أي (إسكات أو إفحام طائفة اليهود). (المترجمة)

(٣١) I. Guttmann, Moses ben Maimon. Frankfurt a.M. 2 vols. 1908-1914; I. Münz, Moses ben Maimon. (Maimonides) Frankfurt a.M. 1912.

(٣٢) Munk, Notice sur Joseph ben Iehoudah, Journal Asiatique, 1842.

ومن المفيد أن نتعرف إلى ابن ميمون الطبيب من خلال معاصريه من كبار العلماء المسلمين. حيث يروي المؤرِّخ ابن القفطي (ت ١٢٤٨م)[٣٣] كيف التحق ابن ميمون، في البداية، بالعمل طبيبًا في قصر آخر الخلفاء الفاطميين بالقاهرة (العاضد، ت ١١٧١م)، ثم اختير ليُرسل إلى ملك الفرنجة (الصليبيين) في عسقلان -ربما كان عموري الأول ملك أورشليم- الذي طلب من المسلمين أن يرسلوا إليه طبيبًا، ولكن ابن ميمون رفض هذه المهمة. وبعد سقوط الفاطميين (في ١١٧١م) عمل ابن ميمون في خدمة القاضي الفاضل عبد الرحمن بن علي البيساني، الذي قرر له راتبًا. ويقول ابن القفطي: «كان يشارك الأطباء ولا ينفرد برأيه لقلة مشاركته، ولم يكن رفيقًا في المعالجة والتدبير...».

أما ابن أبي أصيبعة، أكبر مؤرخي الأطباء العرب، فكان رأيه فيه أفضل[٣٤]، إذ يقول إن الرئيس أبا عمران موسى بن ميمون القرطبي اليهودي كان عالمًا في سنن اليهود، ويُعَدُّ من أحبارهم وفضلائهم، وكان رئيسًا عليهم في الديار المصرية. وهو أوحد زمانه في صناعة الطب وفي أعمالها، متفنن في العلوم، وله معرفة جيدة بالفلسفة. وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يرى له ويستطبه، وكذلك ولده الملك الأفضل (نور الدين) علي[٣٥].

ولدينا أخيرًا رواية عبد اللطيف، الطبيب البغدادي الشهير الذي زار مصر في ١٢٠٠م تقريبًا، وكان يريد التعرُّف إلى ابن ميمون، الذي كان في تلك الفترة شيخًا في الخامسة والستين. فيقول عبد اللطيف[٣٦]: «جاء موسى بن ميمون لرؤيتي، ورأيت فيه رجلًا ذا شأن ولكن تغلبه شهوة التفوق وتملُّق الكبراء. وقد ألَّف رسالة في الطب جمع فيها مختارات من رسائل جالينوس الستة عشر وخمسة كتب أخرى. وقد ألزم نفسه عدم تغيير شيء من تعابير تلك الكتب التي كان يأخذ منها، اللّٰهُمَّ إلا بعض الحروف، مكتفيًا باختيار النصوص التي يريد إدخالها في تلك الرسالة»[٣٧]. وقد يدفعنا هذا الكلام إلى الاعتقاد أن ابن

(٣٣) Tarîh al Hukamâ', p.318.

(٣٤) Oyoun al-Anbâ', vol. II p.117'.

(٣٥) ابن أبي أصيبعة: ٥٨٢.

(٣٦) De Sacy, Relation de l'Egypte par Abdallatif, Paris 1810, p.466.

(٣٧) النص منقول عن عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة، وفيه يقول نقلًا عن عبد اللطيف البغدادي: «وجاءني موسى فوجدته فاضلًا في الغاية، قد غلب عليه حب الرياسة، وخدمة أرباب الدنيا. وعمل كتابًا في الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس، ومن خمسة

ميمون لم يكن في الطب إلا مصنِّفًا بلا عقل ولا رأي. ولكننا سنرى النقيض فيما بعد، عند دراستنا لأكبر كتبه الطبية، الذي يتحدث عنه عبد اللطيف نفسه.

والكتاب المقصود هو الفصول (فصول موسى، وبالعبرية pirqê Môchê)[٣٨]. وقد ألّف الرئيسُ هذا الكتاب في نحو عام ١١٨٨م باللغة العربية. وفي ١٢٧٧م، ترجمه في روما إلى العبرية زرحيا بن إسحق بن شيالتيل حين Zerahya ben Isaac ben Chéaltiel Hein، وبعدها بفترة قصيرة، ترجمه ناتان ها مياتي Natan ha-Meâti ترجمةً أخرى. وقد طُبعت تلك الترجمة الأخيرة، وكانت ترجمة سيئة، في لمبرج Lemberg في بولندا عام ١٨٠٥م، وفي فيلنا Wilna في ١٨٨٨م. وفي العصور الوسطى تُرجم النص العربي إلى اللاتينية، وطُبعت الترجمة في بولونيا Bologne في ١٤٨٦م. أما الأصل العربي فيوجد في عدة مكتبات في القسطنطينية، ومدريد (الإسكوريال) وليدن Leyde وجوتنجن Göttingen وجوتا Gotha. والنسخة الموجودة في جوتا تم شراؤها من مصر في القرن السادس عشر الميلادي، وهي نسخة مخطوطة قيِّمة؛ لأنها تحمل توقيعًا من الناسخ يقول إنه نقلها عن نسخة أبي المعالي يوسف بن عبد الله، ابن أخت ابن ميمون، الذي يقول في توقيع آخر إنه أنهَى نسخته في أغسطس ١٢٠٥م، وإن الأستاذ لم يُتَح له الوقت لمراجعة آخرها قبل وفاته (التي كانت في ١٣ ديسمبر ١٢٠٤م)[٣٩]. وقد أشرت في بداية هذه المحاضرة إلى أنه لا توجد نسخ مطبوعة للنص العربي الأصلي لهذا الكتاب الطبي الكبير لابن ميمون. وأظن أنه واجب على الهيئات العديدة التي تهتم بالتاريخ اليهودي أن تتولَّى نشر هذا العمل «فصول ابن ميمون».

وقد عرفنا محتوى هذا الكتاب من خلال الترجمات العبرية واللاتينية. ويقول ابن ميمون في أوله إنه كتبه لنفسه ولغيره من الأطباء ليسهِّل عليهم معرفة الأعمال الضخمة للطبيب اليوناني جالينوس. وقد وضع خمسة وعشرين فصلًا لخَّص فيها أكثر من ألف وخمسمائة حكمة طبية. ونحن لا نتفق إطلاقًا مع قول عبد اللطيف إن هذا الكتابَ تجميعٌ دقيق يخلو من الآراء الخاصة. فعلى

كتب أخرى، وشرط أن لا يغير فيه حرفًا إلا أن يكون واو عطف أو فاء وصل، وإنما ينقل فصولًا لا يختارها». عيون الأنباء: ٦٨٧. (المترجمة)

(٣٨) I. Pagel, Maimuni als medizinscher Schriftseller. Dans Moses ben Maimon, Frankfurt 1908. Vol. I, p.231 suiv.

(٣٩) .Steinschneider, Die hebraeischen Uebersetzungen des Mittelalters. Berlin 1893, p.766

العكس من ذلك، أضاف ابن ميمون العديد من الملاحظات كان يبدؤها بقوله: «يقول موسى». ويلفت الانتباهَ الفصلُ الأخيرُ (الخامس والعشرون)، حيث ينتقد فيه ابنُ ميمون آراءَ جالينوس، رغم أنه كان المرجع الأساس لكل الأطباء في العصور الوسطى، فيشير إلى أكثر من أربعين مادة ناقَضَ فيها اليونانيُّ الشهيرُ نفسَه. وفي السطور الأخيرة من مقاله، دَحَضَ ابن ميمون آراء جالينوس الغائية في نشأة الكون، وأكَّد على صحة الرواية التوراتية في هذا الأمر.

وقد ألّف ابن ميمون أيضًا ثمانية كتب طبية، طُبعت أربعة منها في ترجماتها اللاتينية والعبرية منذ وقت طويل. ومؤخرًا قام الحاخام هرمان كرونر Herman Kroner بنشر خمسة منها، مصحوبة بترجمة ألمانية وتعليقات(٤٠). وهي أول نشرة للمقالات الطبية لابن ميمون في نَصِّها الأصلي. وقد أحدثكم عنها في مؤتمر آخر.

وسوف أذكرها الآن دون النظر لمحتواها: كتاب في السموم، ألَّفه في عام ١١٩٨م تقريبًا، لراعيه "القاضي الفاضل"، مقالة في الربو، مقالة في البواسير، مقالة في الباه، مقالة في تدبير الصحة، مختصرات من كتب جالينوس، تعليق على حكم أبقراط، ورأي في أسباب الحمى لدى حاكم الرقة (ابن صلاح الدين الذي كان يعاني من نوبات اكتئاب mélancolie). وبالإضافة إلى ذلك يوجد عدد من الكتب الطبية المنسوبة زيفًا لابن ميمون، ومعظمها بالعبرية.

(٤٠) H. Kroner, Ein Beitrag zur Geschichte der Medizin. Obedorf-Bopfingen 1906 (Hygiène des rapports sexuels, texte hébreu); Le même, Eine medizinische Maimoiides Handschrift aus Granada. Dans Janus, vol. 20, Leyde 1916, p.203-247. (Texte arabe du même traité); Le même, Die Haemorroïden in der Medizin des XII und XIII. Jahrhunderts. Ibidem 1911, p.411-456, 645-718. (Texte arabe des Hémorrhoïdes); Le même, Fî tadbir as-sihhat. Ibidem Leyde 1923-25, vol. 27, p.101-116, 286-300, vol.28, p.61-74, 143-152, 199-217, 408-472, vol. 29, p.235-258. (Texte arabe de l'Hygiène pour le sultan Al-Afdal); Le même, Der medizinische Schwanengesang des Maimonides (Fî bayân al-a'râd). Ibidem, Leyde 1928, vol. 32 p.12-116 (Consultation sur les causes des accidents du sultan al-Afdal, texte arabe).
وقد قال د. كرونر Kroner إنه سوف ينشر كتابي الربو والسموم.

ونذكر هنا أن ابن ميمون في مقدمة كتابه "شرح فصول أبقراط"، يستمر في جداله ضد جالينوس، وينتقد إسهابه في تعليقاته. وفي المقابل يَعِد بألا يعلِّق إلا على النقاط الغامضة لدى أبقراط، وأن يبذل قصارى جهده ليكون موجزًا[٤١].

وكان تأثير كتب ابن ميمون التي تُرجمت إلى اللاتينية كبيرًا في الغرب، وخاصةً في فرنسا. فنجد اقتباسات عديدة من كتابات الطبيب الفيلسوف اليهودي الكبير في مؤلفات الجرّاحَيْن هنري دي موندفيل Henri de Mondeville وجي دي شولياك Guy de Chauliac (في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين). وغني عن الذِّكر أنّ كتب الطب العربية بعد القرن الثالث عشر تُكثِر من ذكر ابن ميمون.

ومن بين تلامذة ابن ميمون في الطب، نكتفي بذكر أشهرهم: يوسف بن يهودا Joseph ben Yehoûda (ابن عَقْنِين) الذي يرجع أصله إلى سبتة (المغرب) والمتوفَّى في حلب عام ١٢٢٦م[٤٢]، كما كان كثيرٌ من نسل ابن ميمون المباشرين أطباء مَهَرة، ومنهم ابنه إبراهيم (ت ١٢٥٤م)، وحفيده داود (ت ١٣٠٠م)، وأبناء هذا الأخير: إبراهيم بن ميمون الثاني (ت ١٣١٠م) وسليمان. وكان سليمان هذا "ناجيد" طائفة اليهود في مصر[٤٣].

وفي القرن الثالث عشر، كان بمصر، وخاصة بالقاهرة، عدد كبير من الأطباء اليهود، من الربانيين والقرّائين. ولكن الوقت لا يسع الكلام عليهم الآن.

وأخيرًا، لنا كلمة عن طبيب يهودي مصري، تفاصيل حياته غير معروفة، ولكن كتابه الوحيد لا يزال مُتداوَلًا بين أيدي العطارين في المشرق العربي. وهذا الطبيب هو أبو المنى بن أبي نصر بن حافظ الهاروني الإسرائيلي، المعروف باسم كوهين العطار. وقد ألّف في ١٢٦٠م، بالقاهرة، مقالًا بعنوان "منهاج الدكان ودستور الأعيان"، وقال فيه إنه ألَّف هذا الكتاب لابنه في ٦٥٨هـ(١٢٦٠م).

(٤١) Steinschneider, Die Vorrede des Maimonides zu x. Comm. Ueber die Aphorismen des Hippokrates. Zeitschri. D. Dtsch. Morgenlaed. Gesellsch., 48, 218 suiv., 1894.

(٤٢) M.S. Munk, Notice sur Joseph ben Ichoudah ou Abou'l Hadjâj Youssouf ben Yahyâ al-Sabtî al-Maghribi. Journal Asiatique 1842; Steinschneider, Josef (Ibn) Aknin. Dans Gesammelte Schriften, Berlin 1925, p.3 suiv.

(٤٣) Steinschneider, Zur Literatur des Maimoniden. Breslau 1863 et 1901.

وتوجد مخطوطات عديدة لهذا الكتاب، نجد قائمةً بها لدى شتينشنايدر Steinschneider[٤٤] وقد طُبع الكتاب في بولاق في عام ١٢٨٧هـ(١٨٧٠م)، وفي القاهرة في الأعوام ١٣٠١هـ(١٨٨٣م)، و١٣٠٥هـ(١٨٨٧م)، و١٣٣٠هـ(١٩١٢م)، وعدة طبعات أخرى حتى أيامنا هذه. وكما قلنا، فإن عطّاري الشرق يضعون هذا الكتاب في مكانة عالية، وهو ما تبرهن عليه الألقاب التي تضفيها النصوصُ المطبوعة على المؤلف: (أفلاطون زمانه ورئيس أوانه). وبالفعل فإن هذا الكتاب يقدم ملخَّصًا كاملًا للأدوية المركَّبة التي عرفها العرب، ويعود كثير منها إلى الطب اليوناني. وينقسم الكتاب إلى خمسة وعشرين فصلًا تتناول بشكل منظّم: الأشربة، المربيات، المعاجين، الربوبات، الأقراص، الأكحال، المراهم، الأطلية واللطوخات... إلخ. وفي الفصل الثالث والعشرين يقدّم المؤلف نصائح عملية للصيادلة، وفي الرابع والعشرين يتناول كيفية جمع وحفظ الأدوية المفردة، وفي الخامس والعشرين يعرض لوسائل اختبار الأدوية المركبة، ويشير فيه أيضًا إلى وسائل تعرُّف الغشِّ في الأدوية. ومن بين الكتب الطبية التي يذكرها، هناك أعمال اليونانيين: جالينوس وفيلون وبولس الإيجي، والمسلمين: الرازي وابن سينا وابن رضوان وابن رشد وابن زهر، والمسيحيين: الكندي وابن ماسويه وابن جزلة، واليهود: أوحد الزمان وابن بيان وابن جميع وابن المُدَوَّر وابن رحمون، وأبي المعالي تمام أحد معاصري وزملاء ابن ميمون.

ويذكر لوسيان لوكليرك، المؤرخ الفرنسي للأطباء العرب، أن المنهاج يعد «أحد أفضل الكتب التي وصلتنا في هذا المجال، سواء في الشكل أو في العقلية التي وضعتها»[٤٥]. ويختم مقاله بقوله: «إن المنهاج أحد أعظم الآثار التي تركتها لنا الصيدلة». ونحن نضيف أنه إذا كانت القيمة العملية لهذا الكتاب مشكوكًا فيها في أيامنا هذه، لأنه يقدم وصفات للطب الشعبي وللدجالين، إلا أن قيمته التاريخية لا تُقدَّر بثمن.

ونلاحظ أن الأطباء اليهود في العصر العربي عانوا من نفس الاضطهاد الذي تعرّض له كل اليهود في الشرق والغرب، ولكنهم استطاعوا بموهبتهم الفطرية في الطب أن ينالوا حظوةً لدى الحكام والكبراء، ما سمح لهم في أغلب الوقت أن يخففوا من وطأة المصير التعس لإخوانهم في

(٤٤) Steinschneider, Eine arabische Pharmakopie des XIII. Iahrhunderts Zeitschr. D. Dtsch. Morgenl. Gesellsch., 56, 74-85, 1902.

(٤٥) L. Leclerc, Histoire de la Médecine Arabe, vol. II, p. 215-217.

الدين. ولكن دورهم الأهم كان يتمثل في قيامهم بالوساطة العلمية بين الشعوب، بين الشرق والغرب، فقد ترجم حسداي بن شبروت، لأحد الحكَّام المسلمين، أكبرَ كتب الصيدلة من اليونانية إلى العربية، وذلك بمساعدة راهب يوناني. أما أعمال إسحاق الإسرائيلي وابن ميمون فقد غزت الشرقَ بأصولها العربية، والغربَ بترجماتها اللاتينية.

إن الفكر العلمي لا يعرف الجيتوهات ولا التعصب.

ماكس مايرهوف

القاهرة